شرائع الأنبياء "إختلاف الشرائع ظاهرة إيجابية"

زواوي (الجامعة الإسلامية الحكومية بكالونجان)

Email: zawawi.abdulwahid@gmail.com

ملخص

الأصل في الأديان المتفقة المصدر أن تكون على قدر كبير من التوافق في أصول تشريعاتها وشعائرها وإن تباينت في بعض الفروع والجزئيات التي يقتضيها اختلاف الزمان والمكان. يتعرض هذا البحث للخطوط العامة للشرائع والشعائر التي اشتملت عليها الأديان السماوية مبينا ما تلتقي وما تفترق فيه في هذا المجال و يكشف عن معالم وحدة المصدر لهذه الأديان التي لاتزال أثارها ماثلة في ضوء آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ويصل البحث إلى أن تعدد الشرائع من قبيل تعدد نوعي فهو اختلافٌ إيجابيٌ ،كما أن اختلاف المذاهب الإسلامية من قبيل اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فهو اختلاف تكامل وتقسيم توظيفي للعمل لا اختلاف تنازع.

الكلمات المفتاحية : الدين، الشريعة، الاختلاف

مقدمة

من آيات الله تعالى في خلقه اختلاف الناس في خَلْقهم، وخُلُقهم، ومَلكاتهم، وخصائصهم، وألوانهم، ولُغاتهم، وطرائق تفكيرهم، وقدراتهم الإدراكية ﴿ ومِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾[1].

وكلما خطى الإنسان نحو الحضارة، وتطوَّرت المدنية اتَّسعت آفاق رؤيته، فتتعدَّد الصور والمفاهيم التي ترد عليه، مما يُحدِث تعدُّدًا في الأحكام التي يصدرها. وتجمُّع الناس واختلاف نظراتهم كلما توسع، توسَّعت معه فرجات الخلاف؛ حتى تتولد الآراء والأقوال التي تجد البيئة المناسبة كما تنشئ مذاهب تكون لها جملة من الآراء، ضمن نسَقٍ فكري، يُضبط بقواعد ومفاهيم أولية تُركب منهجًا خاصًّا بها. فما دام الناس يختلفون في ألوانهم وألسنتهم، وطبائعهم وطُرق معايشهم، وفي البيئة التي يَحْيَون فيها، وفي الثقافة التي يَنْهَلون منها، فإنهم لا شك يختلفون في آرائهم وتفكيرهم[2].

إن أسباب اختلاف الناس في الآراء والمذاهب والمقتقدات متعددة، فاختلاف آلة الإدراك لزامًا يخالف بين نتاج المدركات. والقدرة الإدراكية تَفاوُتها يفاوت بين سرعة الانتقال ما بين المقدمات، وينوّع طرق الوصول إلى النتائج؛ "إذ من المدارك والعقول ما يَنفذ إلى صميم الأمور، فيَصِل إلى حقيقتها، ومنها ما يظل طافيًا على السطح، لا يُدرك من الأشياء إلا ظواهرها، ومنها ما يُشغل عن الحقيقة بالخيال والأوهام، فيصده ذلك عن إدراك حقيقة الأشياء أو جزء منها"[3].

---

(1) سورة الروم : 22

(2) البطليوسي، أبي محمد عبد الله بن السيد، التنبيه على الأسباب التي أوجبت اختلاف المسلمين في آرائهم ومذاهبهم، (الرياض، دار المريخ،1982)، ص 3.

(3) المرجع السابق ص 5

الحاجة إلى الاعتقاد

لا تزال الحضارة المادية تلهَث بكل ما أوتيَت من قوة وراء عالم الغيب، على الرغم من أنها قد رفَعتْ لواء التكذيب للغيبيَّات، ورفضت التصديقَ بكل ما غاب عن الحواسِّ، واعتبرت التصديق بعالم الغيب نوعًا من الخرافات والأساطير الباطلة؛ بل وعدَّتْه بعضُ المجتمعات الغربية "آفة" العقل البشري.

وأظهرُ الأدلَّة على هذا السعيِ الحثيث من جانبهم وراء عالم الغيب هو ذلك السَّيل الجرَّار من الأعمال السينمائية، والروايات الخيالية التي تتعرض لعالم الغيب، أو لِما يُسمونه "عالم ما فوق الطبيعة"[1]، وتحتل هذه الأعمال موقع الصدارة من حيث الإنتاج، والمشاهدة، والقراءة في المجتمعات الغربية، وذلك في محاولة منها لإشباع الحاجة الإنسانية إلى الاعتقاد، واستكشاف سرِّ ذلك الغيب المجهول.

فالإنسان في حاجة إلى الاعتقاد، أو بعبارة الأستاذ العقاد (ت 1383هـ = 1964م): "في الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام، ولنا أن نقول: إن الروح تجوع كما يجوع الجسد"[2]. فإذا ما قطع الإنسان علاقتَه بالله تبارك وتعالى، تظل نفسه تتطلع إلى عالم الغيب، وتبحث عمَّا يُشبع هذه الحاجة، حتى ولو لجأ الإنسان في ذلك إلى الخيال، والقصص، والأساطير الكاذبة.

يقول الشهيد سيد قطب (ت 1385هـ = 1966م): "والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسُّه، إلى مرتبة الإنسان الذي

---

(1) من مصطلحات الفقه المسيحي، ويُقصد به ما يفوق قدرة الطبيعة؛ لأنه يعلو على مستواها، وذلك كالأسرار فإنها تكشف لنا عن أشياء خاصة بذات الله لا تتمُّ عنها الخليقة، ولا قِبلَ للمخلوق أن يعلمها بقوته الذاتية. (مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مصر، مكتبة الأسرة، 2016) ص 632.

(2) العقاد، عباس محمود، الله، (مصر، دروب، 2018) ص 16.

يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيِّز الصغيرِ المحدد الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس– وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القُوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسُّه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقَّى أصداءه وإيحاءاتِه في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيُه في عمره القصير المحدود"[1].

فإذا كان علماء الاجتماع يقررون أن الإنسان كائن اجتماعيٌّ بطبعه، ويقرر علماء السياسة أن الإنسان كائن سياسي بطبعه، فإن الحقيقة التي تتجلَّى بوضوح – بلا مكابرة – لدى الجميع: أن الإنسان كائن اعتقادي بطبعه.

وقد رصد بعض المؤرخين هذه الظاهرة – ظاهرة التَّديُّن عند الإنسان – فقال هنري برجسون Henri Bergson (ت 1941م): "لقد وُجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات؛ ولكنه لم توجدْ قطُّ جماعةٌ بغير ديانة"[2].

فلا يمكن أن يعيش الإنسان – أي إنسان– بلا اعتقاد، ويظل عقله وقلبه يلهث وراء الإيمان، ولم تستطع الحضارة المادية بكل ما أوتيت من قوة على المستوى المادي أن تُنسيَ الإنسانَ هذه الحاجةَ أو تُشبعها؛ بل على العكس، كم رأينا من مشاهير بلغوا من الشهرة والجاه والمال حدًّا غير مسبوق، وإذا بأحدهم يتردَّى من أعلى جبل، أو يحتسي سُمًّا، أو يُلقي بنفسه من برج عالٍ تاركًا خلفه الأموالَ والسياراتِ والقصور، والشهرة والأضواء، وذلك بعد أن وصل بوصف أحدهم إلى

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، 1412 هـ) جـ 1 ص 39.

(2) دراز، محمد عبد الله، الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، (القاهرة: دروب، 2018) ص 84

طريق مسدود! وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [1]، إن الإنسان الذي يعيش في معزلٍ عن نور السماء، ولا يعرف ربه، ولا يعرف نفسه، ولا يعرف مستقبله الحقيقيَّ – لهو إنسان تعيس شقي، ولو سكن القصور فليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.

حرية الأديان والاعتقاد

وثبت في تاريخ الإنسانية الطويل اختلاف الإنسان مع نفسه وتغير فكره ما بين وقت وآخر، واختلاف الإنسان الفرد مع غيره من أفراد البشر، واختلاف الجماعة مع الجماعة، والاختلاف طبيعة إنسانية لا ضير فيها إذا صانته مناهج التفكير الرشيد وحرمات الأخلاق من مزالق التعصب الذي قد يدفع إلى الكذب والعدوان على الحقيقة وعلى الناس أنفسهم[2].

هناك آيات كثيرة توضح أن هداية الناس جميعا ليس هدفا جبريا إكراهيا من الله عز وجل ولا من رسالاته، وإنما هناك هدف ابتلاء، ولا يأتي إلا بتكليف وحرية في اختيار أحد النجدين. والحرية هي محل ابتلاء وهي سبب الخلق أصلا وانتزاع هذه الحرية ضد الهدف من الخلق وضد المشيئة الإلهية[3].

إن اختلاف الناس في العقيدة واللغة والعرق يمكن تسميتها بالاختلاف الكوني، ويعني أن الله تعالى لو أراد أن يخلق الناس على دين واحد، وعرق واحد، ولغة واحدة، لفعل ولتحقَّقَت إرادته ومشيئته، لكنه لم يشأ ذلك، وشاء عَكسَه وهو خَلق الناس مختلفين في الأديان والأعراق واللغات[4].

---

(1) سورة النور : 40

(2) الصفار، حسن بن موسى، التعددية والحرية في الإسلام، بحث حول حرية المعتقد وتعدد المذاهب، (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي،2017) ص 20

(3) ابن فرحان المالكي، حسن، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم والسنة النبوية ص 40 ، www.al-maliky.com

(4) أحمد طيب، علاقة المسلمين بغيرهم www.vetogate.com/3167348

وقال تعالى: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"[1]، ويتبع اختلاف الناس في العقيدة والعرق واللغة اختلافهم بالضرورة في العقول والتصورات والأحاسيس والمشاعر.

من حكمة الله أن يستمر الاختلاف في بني بشر خاصة ما تعلق بالعقائد والأديان، نبه إلى أنه ليس من مقتضيات الرسالة وبعث الأنبياء القضاء على الاختلاف لأنه سيكون اختلاف في الكتب التي إنما أنزلت إلا لتدبير هذا الاختلاف [2] وهو ما يتنزل عليه قوله تعالى : وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[3].

الدين واحد والشرائع متعددة[4].

فالأديان السماوية هي الأديان التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً و أرسلهم بها إلى الخلق، وهي في الحقيقة دين واحد في أصله، وهو دين الإسلام قال سبحانه: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ) [5]، قال ابن كثير في تفسيرها: إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة مُحَمَّد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثته بدين على

(1) سورة هود : 118- 119

(2) ناصري، محمد، ظاهرة الاختلاف في المجتمع النبوي، مظاهرها سماتها وسائل تدبيرها، ضمن كتاب "الاختلاف في المجال الإسلامي تأصيلا وتدبيرا، (المملكة المغربية، مؤسسة دار الحديث الحسنية، ج 1 ص 61)

(3) سورة البقرة : 213

(4) ضميرية، عثمان بن جمعة بن عثمان، إن الدين عند الله الإسلام، (مجلة البحوث الإسلامية ، العدد السادس عشر ، من رجب إلى شوال لسنة 1406هـ) ج 16 ص 325.

(5) سورة آل عمران : 19

غير شريعته، فليس بمتقبل منه، كما قال الله تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[1].

نقطة الاتفاق والاختلاف بين الشرائع السماوية

فإن الديانات السماوية متفقة فيما تدعو إليه من توحيد الله تعالى التوحيد الخالص وعدم الإشراك به، ومن بيان المنكر والباطل ودعت إلى محاربته وإزالته سواءً أكان عبادة أوثان أو استعلاء في الأرض أو انحرافاً عن الفطرة كفعل قوم لوط، أو عدواناً على البشر وأحوالهم بقطع الطريق والتطفيف بالميزان.

بالرغم من اتحاد الرسالات السماوية في أصول العقائد والأسس الأخلاقية، واشتراكها في أصول الأحكام الفردية والإجتماعية ، فإنها مختلفة في التشريعات العملية المتغيرة، و إذا كان الدين الذي جاءت به الرسل واحداً وهو الإسلام ، فإن شرائع الأنبياء مختلفة، فشريعة عيسى تخالف شريعة موسى في بعض الأمور، وشريعة مُحَمَّد ﷺ تخالف شريعة موسى وعيسى في أمور، قال تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) [2] والشرعة هي الشريعة وهي السنة ، والمنهاج : الطريق والسبيل .

وليس معنى ذلك أن الشرائع تختلف اختلافاً كلياً، فالناظر في الشرائع يجد أنها متفقة في المسائل الأساسية ، فالرسل جميعا أمروا بالصلاة والزكاة والصوم والحج، أما أعداد الصلوات وشروطها وأركانها ومقادير الزكاة ومواضع النسك ونحو ذلك فقد تختلف من شريعة إلى شريعة، وقد يحلّ الله أمراً في شريعة لحكمة ، ويحرمه في شريعة أخرى لحكمة.

---

(1) سورة آل عمران : 85

(2) سورة المائدة : 48

ونضرب لهذا بعض أمثلة :

الأول : الصلاة من الأشياء التي افترضها الله على الأنبياء، ولكن قد اختص الله كل أمة بكيفية صلاة معينة، فسيدنا إبراهيم الخليل يجعل الغايةَ من سُكنَى إسماعيل بجوار البيت الحرام هو إقامةَ الصلاة، فقال: (ربَّنا لِيُقيموا الصلاةَ) [1] وختَم دعاءه العامَّ الشامل بالتأكيد على تلك الشعيرة فقال: (ربِّ اجعلني مُقيمَ الصلاةِ ومن ذريَّتي ربَّنا وتَقبَّلْ دعاءِ) [2] وأوحى الله بها إلى موسى فقال: (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تَبَوَّآ لقومِكما بمصرَ بيوتًا واجعَلوا بيوتَكم قبلةً وأَقِيموا الصلاةَ) [3] وأخذ الله عليها الميثاق من بني إسرائيل فقال: (ولقد أخذ اللهُ ميثاقَ بني إسرائيلَ وبَعَثنَا منهم اثنَيْ عشَرَ نقيبًا وقال اللهُ إني معكم لئنْ أقمتم الصلاةَ وآتيتم الزَكاةَ..) [4] وتكلم عيسى في المهد مؤكدًا تلك الفريضةَ فقال: (وجعَلَني مبارَكًا أينما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاة) [5].

وكان المسلمون يصلُّون من مبدأ الدعوة الإسلامية في مكة صلاةً بالغداة وصلاةً بالعَشيّ، ويشهد لذلك قوله تعالى: (وسبِّحْ بحمدِ ربِّك بالعَشيِّ والإبكارِ) [6]، كما ورد أن الصبح لآدم، والظهر لداود، وفي رواية لإبراهيم، والعصر لسليمان، وفي رواية ليونس، والمغرب ليعقوب، وفي رواية لعيسى، والعشاء ليونس، وفي رواية لموسى عليهم السلام"[7].

---

(1) سورة إبراهيم: 37

(2) سورة إبراهيم: 40

(3) سورة يونس : 87

(4) سورة المائدة : 12

(5) سورة مريم : 31

(6) سورة غافر: 55

(7) المناوي، محمد عبد الرؤف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (بيروت: دار المعرفة، 1972) ج 1 ص 129.

الثاني : الصوم : فقد كان الصائم يفطر بغروب الشمس ويباح له الطعام والشراب والنكاح إلى طلوع الفجر ما لم ينم، فإن نام قبل الفجر حرم عليه ذلك كله إلى غروب الشمس من اليوم الثاني، فخفَّف الله عن هذه الأمة وأحله من الغروب إلى الفجر سواءً أنام أم لم ينم. قال تعالى : (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ..)[1].

الثالث : ستر العورة حال الاغتسال لم يكن واجباً عند بني إسرائيل ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى بعض وكان موسى يغتسل وحده"[2].

الرابع : " الأمور المحرمة، فمما أحلّه الله لآدم تزويج بناته من بنيه، ثمّ حرّم الله هذا بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرّم الله مثل هذا في التوراة على بني إسرائيل وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً"[3]، وقد فعل يعقوب عليه السلام الجمع بين الأختين فإنه كان يجمع بين ليا وراحيل ابنتي خاله، ثمّ حرم عليهم في التوراة، وحرّم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبان الإبل "[4]، والسبب في ذلك كما ثبت في الحديث " إن إسرائيل (يعقوب) مرض مرضاً شديداً، وطال سقمه، فنذر لله لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل،

(1) سورة البقرة: 187

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري، (بيروت: دار ابن كثير، 1987) الحديث رقم: 274، ج 1 ص 107

(3) المطيري، عبدالمحسن بن زبن بن متعب، الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري، (رسالة الدكتوراة كلية دار العلوم جامعة القاهرة)، ص 50.

(4) وهبة، الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، (دمشق، دار الفكر، بدون)، ص 63.

وأحب الشراب إليه ألبانها "[1]، وهذا الذي حرمه إسرائيل حرّمه الله على بني إسرائيل وحُرّم في التوراة (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ)[2].

ومما حرّمه الله على اليهود ما قصه علينا في سورة الأنعام (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ) [3]. فقد حرّم الله عليهم كلّ ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والوز والبط، وحرّم عليهم شحوم البقر والغنم إلاّ الشحم الذي على ظهور البقر والغنم، أو ما حملت الحوايا وهو ما تحوَّى في البطن وهي المباعر والمرابض أو ما اختلط بعظم. وهذا التحريم لم يكن سببه خبث المحرّم إنما سببه التزام من أبيهم يعقوب في بعض المحرمات، فألزم أبناءه من بعده بمثل ذلك، وبعض المحرمات سببه ظلم بني إسرائيل (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ)[4] وقال : (فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا)[5].

ثمّ جاء عيسى فأحلّ لبني إسرائيل بعض ما حرّم عليهم (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)[6]، وجاءت الشريعة الخاتمة لتكون القاعدة إحلال الطيبات وتحريم الخبائث.

---

(1) البنا، أحمد عبد الرحمن، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (مصر، دار إحياء التراث العربي، دون)، ج 1 ص 105

(2) سورة آل عمران : 93

(3) سورة الأنعام : 146

(4) سورة الأنعام : 146

(5) سورة النساء : 160

(6) سورة آل عمران : 50

وهذا الاختلاف بشتى صوره، إنما يقتضيه ما لله تعالى من الحكمة البالغة والحجة الدامغة في اختلاف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام ومقتضيات الزمان والمكان. يقول الشيخ ولي الله الدهلوي : إن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج، تفصيل ذلك : أن الأنبياء عليهم السلام أجمعوا على توحيد الله تعالى: عبادة واستعانة، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه وتحريم الإلحاد في أسمائه وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيما لا يشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها وأن لله ملائكة لا يعصون الله فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ويفرض طاعته على الناس . . . فهذا أصل الدين، ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن لمية هذه الأشياء إلا ما شاء الله فإنها كانت مسلمة فيمن نزل القرآن على ألسنتهم، وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباهها، فكان في شريعة موسى عليه السلام الاستقبال في الصلاة إلى بيت المقدس وفي شريعة نبينا ﷺ إلى الكعبة، و كان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره، وجاء في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعا، وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها[1].

الاختلاف في الأحكام الشرعية

إن الإسلام هو النظام الوحيد الذي يتسم بمصدرية إلهية مباشرة غير محرفة ولا مبدلة لأنه رسالة السماء النهائية التي سعت لإيصال البشرية كلها إلى مرحلة الرشد، وتميزت بربانية المصدر

(1) الدهلوي، حجة الله البالغة، (بيروت: دار الجيل، 2005)، ج 1 ص 159-160.

والمنهج وربانية الغاية والوجهة[1]، إذ يقول تعالى : وأن إلى ربك المنتهى وقال تعالى ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه.

والاختلاف والتنوع يكونان في كل شيء، ولكنه عندما يكون في الأحكام الشرعية، فعلينا أن نعلم أن الحق عند الله واحد، وما عدا ذلك فهو من باب الاجتهاد، فمَن أصاب فله أجران، ومَن أخطأ فله أجر واحد، وبما أن الحق عند الله واحد، فإن الله سوف يخبر به عباده، ولكن ليس في الدنيا، بل عند مرجعهم إليه، وذلك كما قال في الذكر الحكيم :﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

وقد سردتْ لنا كتب الأحاديث والسير والتاريخ كثيرًا من مشاهد الاختلاف التي كانت بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ولكن ذلك الاختلاف ما زاد قلوبهم إلا مودَّة، وما زادهم إلا إخاءً وصفاء، ومن الأمثلة مسألة اختلافهم بعد غزوة بدر، والتي ذكرها الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود قال: "لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: (ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟)، فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك استَبْقِهم وَاسْتَأْنِ بهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذَّبوك، قرّبْهم فاضربْ أعناقهم... فدخل رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئًا. فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر... فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله لَيُلِينُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكون ألينَ من اللبن، وإن الله ليشدُّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلَك يا أبا بكر كمثل إبراهيمَ عليه السلام قال: ﴿

(1) زكريا، جاسم محمد، القيم الإنسانية في مرتكزات الشريعة الإسلامية، مجلة التسامح، ربيع 1428هـ 2007 السنة الخامسة، ص 60.

(2) سورة المائدة : 48

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [1]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [2]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [3]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[4].

فالمتأمل في الحوار السابق يرى أن سيدنا أبا بكر الصديق وسيدنا عمر الفاروق قد اختلفا في الحكم، وكذلك اختلف كثير من الصحابة وفي كثير من المسائل، ولكن ما اختلفت قلوبهم، وما حملت الضغينة نفوسهم؛ فهم على الفور وبعد كل اختلاف ونقاش وحوار تتصافى منهم القلوب، وتطيب منهم النفوس[5].

والمتأمل كذلك يرى أن النبي ﷺ عندما كان بين الصحابة كان الاختلاف بينهم أقل؛ وذلك لأنهم كانوا يَعرِضون اختلافهم على رسول الله ﷺ فيصدر لهم الحكم الفصل في المسألة، وكانوا ممتثلين لأمر الله تعالى ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[6].

إنّ اختلاف المذاهب الفقهيّة يدور حول المسائلِ الفرعيّة في الإسلام التي لم يثبت فيها دليلٌ قاطعٌ سواء من القرآن الكريم أو السنة النبويّة الشريفة مثل الصلاة، والصيام، والحج فهذه الأمور لا يمكن الاختلاف في فرضيتها، كما لا يمكن الاختلاف في تحريم الربا، والزنا، وقتل النفس.

---

(1) سورة إبراهيم : 36

(2) سورة المائدة : 118

(3) سورة نوح : 26

(4) سورة يونس : 88

(5) العلواني، طه جابر، أدب الاختلاف في الإسلام، (الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1981)، ص 70

(6) سورة النساء، 59.

لقد اجتهد الفقهاء في محاولة تفسير وتوضيح بعض المسائل الفقهيّة التي لا يوجد فيها نصٌ صريح، واختلاف هذه الآراء يعتبر رحمةً بالناس وتخفيفاً للمشقة عليهم، وقد جاء الاختلاف في تفسير المسألة نظراً لأن القرآن الكريم تمت قراءته بعدة قراءات، وكما نعلم فإنّ الحركات على الحروف تحدّد معاني بعض الكلمات في اللغة العربية ممّا يؤدي إلى تفسيرها بشكلٍ معين، كما تمّ النقل عن الرسول ﷺ بطرقٍ مختلفةٍ نظراً لاختلاف علم الصحابة، وقد يكون بعض الصحابة غائباً عن جلسةٍ من جلسات النبي ﷺ فينقل إليه من كان حاضراً ما جرى في المجلس فيحصل الاختلاف في عملية النقل وهكذا[1].

على المسلم اتباع مذهبٍ معينٍ في جميع أحكامه ولكن في حال صعبت بعض المسائل عليه فله الرخصة بأخذ ما هو ميّسر عند المذهب الآخر، لأنّ المذاهب الأربعة التي يتبعها المسلمون (المذهب المالكي، والمذهب الحنبلي، والمذهب الحنفي، والمذهب الشافعي) كلها موثوقة ولا يوجد تناقض فيما بينها بما يخص العقيدة والأمور الأساسية في الدين، ولكن لا يجوز للمسلم التنقل فيما بين هذه المذاهب بحثاً عن الأسهل والذي يناسب هواه لأنّه بذلك قد يقع في دائرة من حذّرهم الله تعالى ممن اتبعوا أهواءهم، لأنّ الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم وقد يهيئ له بعض الأمور بأنّها صحيحة ويمكن التحايل بشأنها فيقع المسلم في الإثم.

النتيجة والتوصية

نخلص من البحث إلى أن الاختلاف سنة إلهية كونية بدءا من اختلاف الأديان، واختلاف الشرائع للرسالات السماوية، والاختلاف في فهم الأحكام الشرعية وفي تطبيقها على الحوادث والقضايا الواقعية، فالتعدد حقيقة لا مراء فيها وما يترتب على ذلك من أن التعايش ضرورة لا محيد

(1) الخفيف، علي، أسباب اختلاف الفقهاء، (القاهرة، دار الفكر العربي، 1996)، ص 10

عنها وهو أمر يشير إلى التعارف كعملية يجب أن يقوم بها الأطراف المتنوعون والمختلفون، وأهم آليات إدارة هذا الاختلاف والتنوع والتعدد وبلوغ التعايش المنشود والتعارف المطلوب هو الحوار بحيث يحرص الجميع على أن يكون ذلك الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، اختلاف تكامل وتقسيم توظيفي للعمل لا اختلاف تنازع.

إنّ المواطن ينبغي أن يتربّى منذ طفولته على احترام التعدديّة، وعلى احترام المذاهب المختلفة، كما يتربّى على إعلام يحترم كلّ المذاهب، ويتربّى على كتب ومناهج وقنوات ووسائل إعلاميّة تحترم التعدديّة وتقرّها فيصبح يعيش مواطنًا مرنًا لا يحمل روحًا طائفية بغيضة ولا يحمل عدوانًا طائفيًا بغيضًا. وعلى المؤمنين أيضًا مهما اختلفتْ مذاهبهم، ومهما تعدَّدت مشاربهم، ومهما تنوَّعتْ آراؤهم وتباينتْ أفكارهم أن يتراحَموا فيما بينهم، وأن تغشاهم سحب المحبة، وأن يرتشفوا معًا فرات المودة والتعاطف، وأن يستظلوا جميعًا بظلال الإخاء والوداد، فهم كما شبَّههم رسول الله صلى الله عليه وسلم جسدٌ واحدٌ.

المصادر والمراجع

ابن فرحان المالكي، حسن، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم والسنة النبوية، www.al-maliky.com

أحمد طيب، علاقة المسلمين بغيرهم www.vetogate.com/3167348

البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري، بيروت: دار ابن كثير، 1987

البطليوسي، أبو مُحَمَّد عبد الله بن السيد، التنبيه على الأسباب التي أوجبت اختلاف المسلمين في آرائهم ومذاهبهم، الرياض، دار المريخ، 1982.

البنا، أحمد عبد الرحمن، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، مصر، دار إحياء التراث العربي، دون

الخفيف، علي، أسباب اختلاف الفقهاء، القاهرة، دار الفكر العربي، 1996

دراز، مُحَمَّد عبد الله، الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، القاهرة: دروب، 2018

الدهلوي، حجة الله البالغة، بيروت: دار الجيل، 2005

زكريا، جاسم مُحَمَّد، القيم الإنسانية في مرتكزات الشريعة الإسلامية، مجلة التسامح، ربيع 1428هـ 2007 السنة الخامسة

سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، 1412 هـ

الصفار، حسن بن موسى، التعددية والحرية في الإسلام، بحث حول حرية المعتقد وتعدد المذاهب، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي،2017

ضميرية، عثمان بن جمعة بن عثمان، إن الدين عند الله الإسلام، مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس عشر، من رجب إلى شوال لسنة 1406هـ

العقاد، عباس محمود، الله، مصر، دروب، 2018

العلواني، طه جابر، أدب الاختلاف في الإسلام، الولابات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1981

مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مصر، مكتبة الأسرة، 2016

المناوي، مُحَمَّد عبد الرؤف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، بيروت: دار المعرفة، 1972

المطيري، عبدالمحسن بن زبن بن متعب، الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة الدكتوراة كلية دار العلوم جامعة القاهرة

ناصري، مُحَمَّد، ظاهرة الاختلاف في المجتمع النبوي، مظاهرها سماتها وسائل تدبيرها، ضمن كتاب "الاختلاف في المجال الإسلامي تأصيلا وتدبيرا، المملكة المغربية، مؤسسة دار الحديث الحسنية

وهبة، الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، دمشق، دار الفكر، بدون التاريخ